

(١)

الدروس المستفادة من خطبة حجة الوداع

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .
وبعد :

فلقد أرسل الله (عز وجل) رسوله (صلى الله عليه وسلم) بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويأخذ بنواصيهم من الضلالة إلى الهدى ، ويسلك بهم سبل النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة ، فدعا (صلى الله عليه وسلم) إلى القيم الفضلى ، والمثل العليا ، وبلغ رسالة ربه (عز وجل) على أكمل وجه ، وأتم صورة ، فظل طوال حياته يرسخ للقيم الإنسانية بقوله ، وفعله ، وتقديره .

وعندما أذن الله (عز وجل) لنبيه (صلى الله عليه وسلم) بأداء الركن الخامس من أركان الإسلام وقف النبي (صلى الله عليه وسلم) بعرفات ، عند الصخرات ، في أعظم تجمع بشري - في ذلك الوقت - يوضح مناسك الحج لأصحابه ، وللأمة من بعدهم ، ويرسخ للقيم الإنسانية والأخلاقية التي ظل يدعو إليها طوال حياته ، وهو يستشعر دنو أجله ، وانتهاء عمره ، فاشتملت خطبته (صلى الله عليه وسلم) على كثير من الدروس العظيمة ، والعبر البليغة التي تعد منهج حياة للبشرية بأسرها .

ومن هذه الدروس : **ترسيخ مبدأ العدل والمساواة بين الناس جميعاً** ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَأَفْضَلُ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لَأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا لَأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلَّا بِالْتَّقْوَى ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...) ؛ فقد جعل (صلى الله عليه وسلم) التقوى

(٢)

والعمل الصالح معيار التفاضل ، امتثالاً لقول الله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } ، فالناس جميعاً سواسية في الحقوق والواجبات ، دون تمييز طبقي ، أو تعصب قبلي ، وهذا ما يقتضيه العدل الذي هو ميزان إقامة الحق ، واعتدال الأمم ، قال سبحانه : { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ } ، وقال سبحانه : { وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } ، وقال سبحانه : { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ } .

ومن هذه الدروس أيضاً : **حرمة الدماء والأموال والأعراض** ، فعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ (رضي الله عنه) عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَعَدَ عَلَى بَعِيرِهِ ، وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ - أَوْ بِزِمَامِهِ - ثُمَّ قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ فَسَكَّنَا حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيَسْمِيهِ بِعَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ : أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا : بَلَى ، قَالَ : فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ فَسَكَّنَا حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيَسْمِيهِ بِعَيْرِ اسْمِهِ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ بِذِي الْحِجَّةِ؟ قُلْنَا : بَلَى ، قَالَ : فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَىٰ أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَىٰ لَهُ مِنْهُ) ، ففي هذا الموقف لفت النبي (صلى الله عليه وسلم) انتباه أصحابه ، واستحضر أذهانهم بهذه الكلمات البليغة التي شملت هذا الأسلوب النبوي البديع الدال على عظم حرمة الدماء ، والأموال ، والأعراض ، وعصمتها ، وأنه لا يحل الاعتداء عليها بأي نوع من أنواع الاعتداء ، فالإسلام يدعو إلى الأمن والأمان ، والسلم والسلام ، ويريد للناس جميعاً أن يحيوا حياة مستقرة ، بلا تمييز ، ولا تفريق بين إنسان وإنسان آخر ، مهما كان جنسه ، أو لونه ، أو دينه ، لأن الشريعة كفلت

(٣)

ذلك لكل إنسان ، قال تعالى : { وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } ، وجعل الله (عز وجل) قتل نفس واحدة بغير حق كأنه قتلٌ للبشرية كلها ، فقال تعالى : { مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْيِرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا } ، وتأكيدها على حرمة الدماء ، وتجريمها للاعتداء عليها ، حذر (صلى الله عليه وسلم) تحذيرًا آخر في هذه الخطبة يتعلق بالدماء وحرمتها ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : (لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا ، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) .

وكما حرم الإسلام الاعتداء على الأنفس حرم كذلك الاعتداء على الأموال بأي صورة من صور التعدي ، قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ } ، وقال سبحانه : { وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْخِلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ، وحفاظًا على الأموال بوجه عام حرمت الشريعة الإسلامية السرقة ، ووضعت لها عقوبة رادعة ، حيث يقول سبحانه : { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } ، وحرمت كذلك اغتصاب الأراضي بأي شكل كان ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ) .

وكذلك حرم الإسلام الاعتداء على الأعراس ، أو النيل منها بأي وجه من الوجوه ، لافرق في هذا بين مسلم وغيره ، قال تعالى محرمًا الزنا : { وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا } ، كما حرم النبي (صلى الله عليه وسلم) قذف المحصنات، وعدّه من الكبائر ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ

(٤)

المُؤَبَّاتِ)، قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: (... وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْعَافِيَّاتِ الْمُؤَمِّنَاتِ...)، ونهى (صلى الله عليه وسلم) عن السباب والشتيم بوجه عام، وسماه فسوقاً، فقال (صلى الله عليه وسلم): (سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ).

ومن الدروس كذلك: **الدعوة إلى الوحدة والتحذير من الفرقة**، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) في خطبته: (...إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَسَّ أَنْ يُعْبَدَ فِي بَلَدِكُمْ هَذَا آخِرَ الزَّمَانِ، وَقَدْ رَضِيَ مِنْكُمْ بِمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ، فَاحْذَرُوهُ فِي دِينِكُمْ...)، فلنتحد، ونعتصم بحبل الله جميعاً، استجابة لقوله (جل شأنه): {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}، وقوله سبحانه: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}، ولنعلم أن التشرذم والتفرق ليس من دين الله في شيء، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ}، فالإسلام يدعو إلى الوحدة، ويحرم النزاع والفرقة.

ومن الدروس: **وجوب التمسك بكتاب الله (عز وجل) وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم)**، حيث قال (صلى الله عليه وسلم): (...وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَمْ تَضِلُّوا إِلَّا بِمَعْزَمَتِكُمْ بِهِ، كِتَابَ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي...)، وكتاب الله (عز وجل) هو المعجزة الخالدة، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا يتبدل ولا يتغير على مرّ الأعوام، وفوات الدهور، قطع الله به وبسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) الأهواء، وقضى بهما على الاختلاف، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}، والتمسك بالكتاب وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) علامة الإيمان، وبرهان التقوى، حيث يقول سبحانه: {فَلَا

(٦)

يَمُوتَ عَنْهُنَّ ، كُنْتُ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ ، وَأَشَارَ بِأَصْبَعِيهِ السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى) ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الصَّلَعِ أَعْلَاهُ ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرَتْهُ ، وَإِنْ تَرَكَتْهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا) ؛ فكلمة (خيرًا) الواردة في الحديث كلمة جامعة مانعة ، توحى بوجوب التخلق بأسمى معاني الرجولة حين يتعامل الرجال مع النساء .

فما أحوجنا جميعًا أن نطبق هذه القيم النبيلة التي جمعت الخير للبشرية كلها ، فقد جاءت بحق سبقًا في تاريخ البشرية ، حيث أرست قواعد حقوق الإنسان ، ورسمت المبادئ والقيم الأساسية الإنسانية والخلقية التي إن تدبرها الناس ، وعقلوها ، وعملوا بما فيها ، كانت سببًا لسعادتهم في الدنيا والآخرة .

**ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم
، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم**